العدول وبناء المعنى

Deviation and construct meaning

أ/د: عبدالقادر حمراني

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف – الجزائر–

a.hamrani@univ-chlef.dz

تاريخ الإرسال:2023/03/06	تاريخ القبول2023/03/24	تاريخ النشر: 2023/03/30

الملخص:

بناء المعنى هو بناء مقاصد ودلالات، تمثّل انعكاسا لجملة التصوّرات الماثلة في الفكر، المتجلية على صفحات الذّكر التي ترد بأساليب شتّى، تتنوّع بتنوّع مجاري الكلام، ومتطلبات المقام التي كثيرا ما يقتضي استدعاؤها عدولا عن الأصل المفترض لاستيفاء مقتضيات الغرض. إنّ التناسب بين المعنى والمبنى من شأنه أن يدفع بالمتكلّم عموما والناظم خصوصا إلى الحرص على استغلال مختلف الإمكانات التي تبيحها القواعد النحوية، وما تسمح به العلاقات اللغوية ليخرج كلامه في أبهى صورة له مستخدما كلّ أصناف العدول الممكنة. ومستغلا أجودها نظما للمواءمة بين المبنى والمعنى ومن ثَمّ الظّفر بأحسن تعبير لتحقيق التأثير. هذه الفكرة التي نودّ تتبّع خيوطها والكشف عن ملابساتها للوقوف على فاعلية العدول عن الأصل في رسم ظلال المعنى من خلال عوارض المبنى.

الكلمات المفتاحية: بناء المعنى، التصورات الماثلة في الفكر، العدول عن الأصل، التناسب بين المبنى والمعنى.

Abstract : *Composing meaning is building purposes and connotations that reflect what exists in thought. The proportionality between the building and the meaning often requires the renunciation of the original expression. We may be forced to use all possible language methods to achieve the purpose. This idea we want to track its threads and reveal its outfits to see the effectiveness of renouncing the original in drawing.*

Keywords: *to Construct Meaning, Perceptions of thought, Deviation from base origin, Proportionality between building and meaning.*

المقال:

تتدخّل في إنتاج المعنى جملة من العوامل اللّغوية وغير اللّغوية ذات الصّلة بالغرض الذي يؤمّه منشئ الكلام الذي هو في جوهره صدى لما هو ماثل في الفكر، ومضمر في النّفس. تجلّيه الوسائط اللّغوية العاكسة لبصمات الفكر على صفحات الذّكر. وممّا هو معلوم بداهة أنّ عملية التعبير عن المعنى الواحد تختلف باختلاف المعبّرين الذين تتباين مستويات الأداء عندهم تبعا لخصائصهم الأسلوبية، وما يمتلكونه من رصيد لغوي ، وزاد معرفي، ومؤهّلات عقلية تمثّل حجر الزّاوية في عملية الإفصاح عن الأغراض والمقاصد التي يتوقّف تحقيقها في الغالب على ما تشحن به من دلالات تسهم في تحقيقها أساليب العدول عن الأصل المفترض بفعل ما تخلّفه من وقع خاصّ لدى المتلقي، وما تثيره من أحاسيس استجابة لتلك القوّة الضّاغطة التي تأخذ بمجامع القلوب، وأزمّة العقول. يحدث ذلك لما يكون الأسلوب التعبيري جامعا بين الإقناع والإمتاع في كنف الإبداع. ذلك أنّ" النّظام اللغوي لا يقوم على خدمة الأغراض المنطقية وحدها، بل غايته التعبير عن الوجدان والإرادة ممّا له تعلّق بذات القائل وفعله اللغوي الذي يترك أثره في السّامع."[1]

قبل الخوض في فلسفة المعنى وكيفية بنائه تجدر بنا الإشارة إلى مفهومه اللغوي والاصطلاحي فقد ورد في لسان العرب: « المِعْنَى والتفسيرُ والتَّأْوِيل واحدٌ وعَنَيْتُ بالقول كذا أَردت ومَعْنَى كلّ كلامٍ ومَعْناتُه ومَعْنِيَّتُه مَقْصِدُه والاسم العَناء يقال عَرَفْتُ ذلك في مَعْنَى كلامِه ومَعْناةِ كلامه وفي مَعْنِيِّ كلامِه.»[2]

ويرى الشريف الجرجاني أنّ: « المعاني هي الصور الذهنية من حيث إنه وضع بإزائها الألفاظ والصور الحاصلة في العقل، فمن حيث إنها تقصد باللفظ، سميت: مفهوماً، ومن حيث إنّه مقول في جواب ما هو، سميت: ماهية، ومن حيث ثبوته في الخارج، سميت: حقيقة، ومن حيث امتيازه عن الأغيار، سميت: هوية.»[3]

وإذا كان المعنى في عمومه يدلّ على الفكرة الذّهنية المجرّدة المعبّر عنها بالكلام كما يقول حازم القرطاجني : « إنّ المعاني هي الصّور الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان. فكلّ شيء له وجود خارج الذهن فإنّه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن تطابق لما أدرك منه، فإذا عبّر عن تلك الصّورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبّر به هيئة تلك الصّورة الذّهنية في أفهام السامعين وأذهانهم. فصار للمعنى

وجود آخر من جهة الألفاظ.»[4] فهو عند النقاد العرب القدامى يحوي خصوصا وعموما أمّا العموم منه فكلّ فكرة ذهنية معبّر عنها بكلام ما. وأمّا الخصوص فيشمل المبتكر من الأفكار التي تنسج على غير منوال سابق. وكأنّ هناك معاني عامة شائعة بين الناس ومعاني خاصّة لا تأتي إلاّ على ألسنة المفوّهين. وقد أشار أبو هلال العسكري إلى هذين النوعين بقوله: « ضرب يبتدعه صاحب الصناعة من غير أن يكون له إمام يقتدي به فيه، أو رسوم قائمة في أمثلة مماثلة يعمل عليها ، وهذا الضرب ربما يقع عند الخطوب الحادثة ، ويتنبه له عند الأمور النازلة الطارئة. والآخر ما يحتذيه على مثال تقدّم ورسم فرط.»[5]

ويسمّي ابن رشيق المعاني المبتكرة بالاختراع حيث يقول: « التوليد: أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدّمه، أو يزيد فيه زيادة... والاختراع خلق المعاني التي لم يسبق إليها... والابتداع إتيان الشاعر باللفظ المستظرف، والذي لم تجر العادة بمثله. فصار الاختراع للمعنى والابتداع للفظ، فإذا تمّ للشاعر أن يأتي بمعنى مخترع في لفظ بديع، فقد استولى على الأمد. وحاز قصب السبق.»[6]

لقد أخذت قضية اللفظ والمعنى حظا وافرا من العناية والاهتمام لدى علماء العربية الذين أثر عنهم الخوض في هذه القضية وهم في ذلك بين متشيّع للمعنى وبين مكبر لشأن اللفظ، وجامع بينهما على أن تكون الألفاظ في خدمة المعاني وتجويدها وهو ما نبّه إليه ابن جنّي بقوله: « فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها وحسنوها، وحموا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني، وتنويه بها وتشريف منها. ونظير ذلك إصلاح الوعاء وتحصينه، وتزكيته، وتقديسه، وإنما المبغي بذلك منه الاحتياط للموعى عليه، وجواره بما يعطر بشره، ولا يعر جوهره، كما قد نجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه ويغض منه كدرة لفظه، وسوء العبارة عنه.»[7]

لاشكّ أنّ العناية بإخراج المعنى في أبهى صوّره، وأرقى تعابيره، قد شغل بال الكتّاب والشّعراء الذين جمّلوا فنون القول، وصقلوا أساليبه، وتوسّلوا لذلك بما هو أهل له، لأنّ « العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها، وتلاحظ أحكامها، بالشعر تارة، وبالخطب أخرى، وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها، فإن المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها، وأفخم قدراً في نفوسها.»[8] لهذا السبب تنوعت مجاري الكلام وتباينت في

التعبير عن المعنى الواحد بوسائط جملية قائمة على الاتساع في الاستعمال الأمر الذي يمكّن لظاهرة العدول عن الأصل ويجعلها مستفحلة في كلامهم بفعل ما تنطوي عليه من نتوآت أسلوبية تتجاوب مع رموز الفكر وخلجات النفس.

أدرك اللغويون قديما أنّ اللغة عبارة عن نظام لمجموعة من العلامات الدّالة و هي وسيلة تبليغ لتحقيق الإفادة. فقد حدّها ابن جني:« بأنّها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم.»[9] وهذا معناه أنّ الحدث الكلامي متلازم في نشأته وممارسته مع مقتضيات الواقع. وأنّ ثمرة الوحدات اللغوية لا تتعلّق بمدلولاتها بل بما تحقّقه فيما بينها من فوائد معنوية تمثل « محصّلة التفاعل الدلالي بين معاني الألفاظ من ناحية، ومعاني النحو التي أقامها المتكلّم بين هذه الألفاظ من ناحية أخرى.»[10] فالنظام اللغوي وجد لكي يحمل الأفكار، ويبلّغ المقاصد والأغراض. فهو وسيلة تبليغ جوهره الإفادة. وقد ميّز علماء العربية بين المعنى والإفادة لما قالوا:" لابدّ لكلّ كلام من معنى يدلّ عليه، ولكنّه وإن كان ينبغي أن يفيد في الأصل فقد يكون غير مفيد أي غير حامل لفائدة، وإذا كان سيبويه ألحّ على هذه الوظيفة فقد التبس الأمر على الذين جاؤوا بعده، فخلطوا بين الوظيفة الإعلامية والدّلالة على المعنى."[11]

معلوم أنّ المعنى قبل أن تجليه الوسائط اللغوية ملفوظة كانت أو مكتوبة أو إشارية ليتحوّل إلى قوّة موجودة بالفعل يظلّ في حالة كمون واستتار إلى أن يحييه الإفصاح ويجلّيه الإعراب. يقول الجاحظ: « المعاني القائمة في صدور النّاس المتصوَّرَة في أذهانهم و المتخلِّجة في نفوسهم، والمتَّصِلة بخواطرهم، والحادثة عن فِكَرهم، مستورةٌ خفيّة، وبعيدةٌ وحشية، محجوبةٌ مكنونة، وموجودةٌ في معنَى معدومةٍ، لا يعرف الإنسانُ ضميرَ صاحِبه، ولا حاجة أخيه وخليطِه، ولا معنَى شريكِهِ والمعاونِ له على أموره، وعلى مالا يبلغه من حاجات نفسه إلاّ بغيره، وإنما يُحيي تلك المعانيَ ذكرُهم لها، وإخبارُهم عنها، واستعمالُهم إيّاها.»[12] مدلول هذا الكلام أنّ المتكلّم يحدث له تصوّر للفكرة على مستوى الذهن في عالم التجريد ، وعند الإفصاح عنها يكسوها ثوبا لفظيا تتفاعل فيه علاقات الوحدات حينما يضمّ بعضها إلى بعض مرتبا إياها بحسب معاني النحو وما تتطلبه من تعليق يكون سببا في حدوث التلاقح بينها. يحدث هذا من خلال مجموعة من الخيارات التي تتيحها اللغة لمنشئ الكلام. وهنا تتباين

أساليب التعبير عن الفكرة الواحدة. ويتمّ تحويل المعنى إلى مبنى ضمن صوّر شتّى تتجلّى فيها قدرة المتكلّم على توخي معاني النحو وسبل إحكامها لأنّ إنتاج الكلام هو ضرب من إعمال الفكر. ونودّ الإشارة في هذا المقام إلى أنّ عملية التعليق تحصل بين معاني الألفاظ وليس بين الألفاظ نفسها. وهو ما نبه إليه عبد القاهر بقوله: « ألا ترى أنا لو جهدنا كل الجهد أن نتصور تعلقاً فيما بين لفظين لا معنى تحتهما لم نتصور. ومن أجل ذلك انقسمت الكلم قسمين: مؤتلف وهو الاسم مع الاسم، والفعل مع الاسم. وغير مؤتلف وهو ما عدا ذلك كالفعل مع الفعل، والحرف مع الحرف. ولو كان التعلق يكون بين الألفاظ لكان ينبغي أن لا يختلف حالها في الائتلاف، وأن لا يكون في الدنيا كلمتان إلا ويصح أن يأتلفا، لأنه لا تنافي بينهما من حيث هي ألفاظ.»[13]

لا تعليق بين الوحدات إلاّ ما تسمح به القوانين النحوية التي تسمح بإنتاج معنى موحّدا بين عناصر الجملة. وليس عدّة معاني. وهو ما يعرف بالمعنى الدلالي للجملة الناجم عن تفاعل المستويات اللغوية. وهي أشبه ما يكون في تداخلها وتأثيرها وتأثّرها مجتمعة بالدوائر الحادثة عن الموجة المائية التي تتشكّل إثر سقوط جسم صلب في الماء فيحدِث صوتا. وينتج عنه شكل تتسع حلقاته ثمّ تضيق، وكلّها مشدودة إلى المركز. و قد مثّل عبد القاهر لهذه الفكرة بجملة ضرب زيد عمرا يوم الجمعة ضربا شديدا تأديبا له. ليقرّر بأنّ المتلقي يفهم من مجموع هذه الألفاظ المركبة معنى واحدا هو نتاج اتحاد معاني الوحدات التي اتحدت فصارت كأنّها لفظة واحدة.[14] وليس خفيا أنّ طريقة النظر في أيّ كلام منوطة بالغرض الذي يقصده المتكلّم. فالحدث الكلامي توجّهه الأغراض النفعية والمقاصد الدلالية وتكون معاني النحو فيه –الحدث الكلامي– وسيلة لغاية إذ« ليست المزية بواجب لها في أنفسها[15] ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثمّ بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض.»[16] ونشير هنا إلى أنّ اللّغة المعيارية تلتزم الأصول العامّة في التعبير بينما تجنح الأساليب الإبداعية إلى الشّعرية التي تعدل عن المألوف طلبا للوظيفة الجمالية التي تعكس خصوصية المبدع وتفرّده في بناء معانيه، وإنتاج أفكاره.

وإذا كان المتكلّم يعمل على تجسيد المعنى في قالب المبنى فإنّ المتلقي يسير في الاتجاه المعاكس له حين يحوّل المبنى إلى معنى كي يقف على فحوى الصورة التركيبية. ولما كان المبنى وعاء للمعنى وحاضنا له وجب أن

يكون مفصّلا على حسب مقاسه، وهو ما تشترطه البلاغة في الكلام الذي يقوم في حقيقته على ثلاثة أشياء أساسية: « لفظ حامل، ومعنى به قائم، ورباط لهما ناظم.»[17]

والجدير بالذّكر أنّ ظاهرة العدول عن الأصل تتفق في كثير من جوانبها مع ما جاءت به نظرية النحو التحويلي لنعوم تشومسكي حيث ميّز هذا الأخير بين مستويين اثنين للجملة وهما: البنية العميقة والبنية السطحية بناء على أنّ المستوى الأوّل يعكس النمط المثالي التجريدي المقدّر في الذهن ، ويعكس المستوى الثاني الصورة اللغوية المؤدّاة في التعبير نطقا أو كتابة وتكون تلك البنية السطحية فرعا عن البنية العميقة وهي في تفرعها تأخذ أوضاعا عديدة تحدّدها التحولات الاضطرارية أو الاختيارية التي تستجيب لدواع بلاغية. وهي في كلّ ذلك تمثّل استغلالا وتوظيفا للطاقات الكامنة في اللغة. وعلى هذا الأساس يمكن القول بأنّ البنية العميقة تمثّل الأصل بالنسبة لأيّ تعبير كونها النّمط المثالي التّجريدي الحاصل في الذّهن، وأنّ البنية السطحية التي هي فرع عنها تمثل الصورة اللغوية المحسوسة. وهي في تفرعها عنها تأخذ أشكالا عديدة وأوضاعا مختلفة بسبب العدول عن الأصل الذي ضبطه النحاة وقيّدوه بجملة من القواعد والأصول التي تضمّنتها مؤلفاتهم. ولاشكّ أنّ سائر الفروع و الأشكال الناجمة عن ذلك وإن تميزت من حيث القيمة الجمالية والشحنة التأثيرية تظل ذات بنية عميقة واحدة. لذا فإنّ الأسلوب يمثل اختيارا فرديا للوحدات اللغوية واستثمارها وفق نمط خاص عن طريق قواعد التحويل التي تنطوي على بعض الخصائص التي ترشحها للتعامل مع النص الأدبي.

مدلول هذا الكلام أنّ مستعملي اللغة يكرعون من معين واحد لنظام لغوي معيّن إلاّ أنّ الفوارق ستظل ماثلة بين أسلوب وآخر مادام لكل متكلم حرية الاختيار في تركيب الجمل والربط بينها. وإيثار صيغ وأدوات وصوّر تمثّل طريقة من طرائق التعبير التي تمثل عدولا عن الأصل التجريدي المفترض والذي يتم اللجوء إليه لمعرفة البدائل التي يرشحها كل متكلم. وبهذا يكون الأسلوب اختيارا واعيا بين مجموعة من الإمكانات التي توفرها اللغة حيث تتيح للمتكلم التصرف في أشكال الجمل والعبارات وإيثار صورة من صور التركيب قد تماثل غيرها في أداء أصل المعنى إلاّ أنها تفارقها في خصوصية ما، معنوية كانت أو إيقاعية لفظية. وعلى هذا الأساس كان تعريف

علم الأسلوب بأنه:«محصلة مجموعة من الاختيارات المقصودة بين عناصر اللغة القابلة للتبادل.»[18] أو هو: « الخروج عن اللغة النفعية إلى اللغة الإبداعية.»[19] أو هو: « دراسة طريقة التعبير عن الفكر من خلال اللغة.»[20]

يقوم المنتج للمعنى بانتقاء التراكيب المعبّرة عن المقصود عبر متواليات لغوية وهو في كلّ ذلك « يملك حرية تشكيل المعنى عبر آلية الإتساع اللغوي، أو العدول القائم على ترك الدلالات الوضعية للألفاظ، والإشارة من خلالها إلى معان أخر.»[21] وهنا يكمن سرّ عطاء اللغة التي لاينضب معينها بسبب جمعها بين الاستعمال الحقيقي والاستعمال المجازي الذي ينتج جملا وتراكيب لا حصرلها تؤطّرها الضّوابط النحوية لأنّ « الاتساع أو العدول اللغوي مبني على قواعد إنتاجية في القول والإبلاغ وهي التي يجب اعتمادها والعمل بموجبها لحظة إعادة بناء المعاني المنوطة بالمتلقي الذي يسعى إلى الفهم ويترصّده.»[22] فيحلّل الكلام تبعا لمقتضيات النحو، وملابسات المقام. تلك هي جملة الاعتبارات التي روعيت عند التأليف فكلّ« ما تناوله البلاغيون من الأغراض البلاغية وما يتصل بها من عاطفة المتكلّم وسياق المقام، أو ما يعبّرون عنه بمقتضى الحال، ينبغي أن يكون محلّ عناية علم بناء الجملة. والذي أطمئنّ إليه أنّ علم بناء الجملة لا يستطيع أن يبلغ من مقصده شيئا ما لم يُدخل في حسابه كلّ مباحث علم المعاني، فهو الجانب المعنوي فيه. »[23] وكلّما تحققت المناسبة بين المعاني و المباني كان ذلك أقدر على التصوير، وأبلغ في التعبير المفضي إلى قوّة التأثير. « فلكلٍّ ضربٍ من الحديث ضَرْبٌ من اللفظ، ولكلٍّ نوعٍ مِن المعاني نوعٌ من الأسماء.»[24] وجماع الوصل في هذا كامن في إيقاع الألفاظ على شاكلة المعاني للظفر بالمقصود ونيل المطلوب لأنّ « حسن التأليف يزيد المعنى وضوحاً وشرحاً، ومع سوء التأليف ورداءة الرّصف والتركيب شعبة من التّعمية، فإذا كان المعنى سبيّاً، ورصف الكلام رديّاً لم يوجد له قبول، ولم تظهر عليه طلاوة. وإذا كان المعنى وسطا، ورصف الكلام جيّداً كان أحسن موقعاً، وأطيب مستمعاً....وحسن الرّصف أن توضع الألفاظ في مواضعها، وتمكّن في أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديمُ والتأخيرُ، والحذف والزيادةُ إلا حذفاً لا يفسد الكلام، ولا يعمى المعنى، وتضمّ كل لفظة منها إلى شكلِها، وتضاف إلى لفقِها.»[25]

وينال النظم شرف الجودة المحققة للإعجاب وقوّة التأثير في النفوس بالنظر إلى درجة التوافق والانسجام الحاصلتين بين المنطوق أو المكتوب من الكلام وبين الصوّر الذهنية الكامنة في النفس. والمترتبة فيها بالنظر إلى ما

يتطلبه المقام إذ « ينبغي أن تعرف أقدار المعاني، فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين، وبين أقدار الحالات، فتجعل لكلّ طبقة كلاما، ولكلّ حال مقاما، حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات.»[26]

إنّ التناسب بين المعنى والمبنى من شأنه أن يدفع بالمتكلّم عموما والناظم خصوصا إلى الحرص على استغلال مختلف الإمكانات التي تبيحها القواعد النحوية وما تسمح به العلاقات اللغوية ليخرج كلامه في أبهى صورة له مستخدما كلّ أصناف العدول الممكنة. ومستغلا أجودها نظما للمواءمة بين المبنى والمعنى. « فللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها، فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض. وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه، وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه، وكم من صارم غضب قد انتضاه من وددت لو أنه انتضاه فهزه ثم لم يضرب به، وكم من جوهرة نفيسة قد شينت بقرينة لها بعيدة منها، فأفردت عن أخواتها المشاكلات لها.»[27]

والجدير بالذكر أنّ الناس يتفاوتون في طرق الأداء ووسائل التعبير عن أفكارهم وأغراضهم ذلك أنّ منتج الرسالة القاصد لمعنى ما، يجد نفسه أمام مجموعة من الخيارات المتقاربة فيما بينها والمتفاوتة الدلالة ليختار منها ما هو أدقّ تعبيرا وأقوى تأثيرا. وكلّما كانت الأفكار أعمق في مضمونها، وأبعد في غورها احتاجت إلى لغة أدقّ في تركيبها، وأشفّ في بيانها. وربّما كان التّصوير الفنّي هو الأنسب لتجسيد المعنى ورسم معالم الفكرة وبهذا يكون هذا النّوع من العدول ذا وظيفة إقناعية متأتية عن طريق الحضور الذي يعدّ إحدى وسائل الحجاج الهامّة.[28]

لاشكّ أنّ هذا النوع من التعبير عن المعاني يحتاج إلى جهد إضافي وتدبّر أكبر في إنشائه وكذا في محاولة فهمه. فمنتج الرسالة التعبيرية يملك القدرة على التصرف في تشكيل المباني الحاملة لأصناف المعاني عبر آلية التوسع اللغوي وما يتيحه النحو من مسارات نظمية كفيلة بإخراج المعنى في أبهى صوّره و أرقى بناء له، على أنّ « تشييد المعنى هو حصيلة عمليات ذهنية تعمل فيها ذخيرة المنتج واجتهاداته ومحاولته توليد معان ينفرد بها، وتشهد على إبداعاته وعبقريته.»[29] وهنا تتجلى فكرة العناية بدور المتلقي عند النحاة الذين جعلوا من المبنى أصلا للمعنى وسبيلا إلى الوصول إليه وإدراكه. وهي النظرة نفسها التي يتبناها علم تحليل الخطاب في منهجه الحديث.

وقديما تنبّه النّحاة والبلاغيون العرب إلى هذه الظّاهرة الأسلوبية – العول– وما لها من أثر في بناء المعنى وخصّوها بحظّ وافر من العناية والاهتمام في الدراسات اللغوية نظرا لارتباطها بتراكيب الكلام في أوضاعه المختلفة باختلاف الأغراض والمقاصد. وتزداد أهمية حينما يتعلّق الأمر بمحاولة فهم النص القرآني، والتدليل على وجوه الإعجاز البياني فيه. وقد تجلّى الحديث عن العدول بشكل سافر لدى سيبويه تحت مصطلح التوسّع، وفي باب شجاعة العربية عند ابن جني. وتجسّدت باكورة هذا الأمر في كتاب " مجاز القرآن " لأبي عبيدة الذي سعى من خلاله إلى الربط بين المعنى والمبنى في شكله المعدول للملاءمة بين المعيار اللغوي والتعبير القرآني المباين للأصل المفترض. وكذلك فعل ابن قتيبة في كتابه "تأويل مشكل القرآن" الذي كان يهدف إلى توضيح ما أشكل في النصّ القرآني حتى يفهم من جهة، وردّ كيد المغرضين الذين شككوا في بعض آياته من جهة أخرى. ومن ثَمّ تنزيهه عمّا لا يليق به كنصّ مقدّس يعلو ولا يُعلى عليه في أسلوبه وطريقة نظمه. وقد مثّلت فكرة الإعجاز في القرآن الكريم قطب الدائرة في البحث في خصائص اللسان العربي واستقر رأيهم على القول بوجود مستويين من الكلام في اللغة، أوّلهما الأصل أو المثال المشترك الذي يقوم على نماذج معهودة، وأصول معدودة. وثانيهما الفرع أو العدول الناجم عن التوسّع في الكلام الذي يجنح إلى الخطاب الأدبي متخطيا حدود المعيار الذي أقرّه النحاة بعد استقرائهم للمنظومة اللغوية وتثبيت قواعدهم مع اعتقادهم سلفا بأنّ العدول عن تلك الأصول واسع جدّا وهو يندرج في خانة التوسّع أو المجاز بمفهومه القديم.

وتبدو لنا معالم هذه الظاهرة جلية في أعمال اللغويين الذين خاضوا الحديث في هذا المجال وأبدوا ملاحظات جدّ هامّة في بابها كما هو الحال في حديث ابن جني عن الحقيقة والمجاز حيث قال: « الحقيقة ما أقرّ في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة. والمجاز ما كان بضدّ ذلك، وإنّما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة وهي الاتّساع والتوكيد والتشبيه فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة.»[30] يفهم من هذا أنّ المجاز حدث طارئ على الحقيقة التي تمثّل الأصل. والنصّ يشير إلى العدول صراحة رابطا إياه بجملة من الدواعي المسوّغة لذلك الاستعمال. وجملة الأمر في هذا أنّ العرب أدركوا متصرّفات الخطاب، ووجوه ترتيب الكلام. وما تختلف فيه طرق البلاغة وتتفاوت. وما هو مبني على أصالة طبع أو سمة تصنّع. ولا مسوا الحدود الفارقة بين الأصل والفرع وما يترتب عن تلك الظواهر من دلالات ومقاصد هي جديرة بالرعاية والاهتمام.

أمّا في الدراسات اللغوية الحديثة فقد شغلت فكرة العدول حيّزا واسعا في الساحة الأدبية بصفة عامّة وعُبِّر عنها بمصطلحات عديدة تشير في مجموعها إلى الانتقال من مستوى تركيبي معيّن إلى مستوى آخر. وفي ذلك خروج عن اللغة النفعية إلى اللغة الإبداعية الفنية التي يقتضيها سياق الخطاب. وقد مثّلت هذه الظاهرة بؤرة المباحث الأسلوبية، وشكّلت حجر الزاوية فيها حتى أنهم عرّفوا البحث الأسلوبي بأنّه علم الانحرافات. « بل ربّما كان هذا الانتهاك هو الأسلوب ذاته.»[31]

والجدير بالذكر أنّ البحث في هذا المجال قطع أشواطا كبيرة في التنظير لظاهرة العدول وتفسيرها لإبراز ما تنطوي عليه من خصوصيات أسلوبية ذات ثقل دلالي في تشييد المعاني، ورسمها تبعا لما هو مركوز في النفس ومِثْر في الوجدان. « ولعلّ قيمة مفهوم الانزياح في نظرية تحديد الأسلوب اعتمادا على مادّة الخطاب تكمن في أنّه يرمز إلى صراع قارّ بين اللغة والإنسان: هو أبدا عاجز عن أن يُلمّ بكلّ طرائقها ومجموع نواميسها وكلية إِشْكالِها كمعطى موضوعي ما ورائي في نفس الوقت بل إنّه عاجز عن أن يحفظ اللغة شموليا، وهي كذلك عاجزة عن أن تستجيب لكلّ حاجاته في نقل ما يريد نقله وإبراز كلّ كوامنه من القوّة إلى الفعل.»[32] وسيظلّ هذا الصراع قائما بناء على أنّ هناك علاقة وطيدة بين ثلاثة أصناف من المركّبات: تركيب الواقع، وتركيب العقل، وتركيب اللغة المفصحة عن صورة الوجود الموجود في الذّهن المتفاعل مع مختلف النوازع والمؤثرات محسوسة كانت أو معنوية. وبهذا يكون « القول دليلا على ما في الذّهن، وما في الذّهن صورة لما في الوجود مطابقة له. ولو لم يكن وجود في الأعيان لم ينطبع صورة في الأذهان، ولو لم ينطبع صورة في الأذهان لم يشعر بها إنسان. ولو لم يشعر الإنسان لم يعبّر عنها باللسان. وإذن فاللفظ والعلم والمعلوم ثلاثة أمور متباينة لكنّها متطابقة متوازية.»[33] تسعى في ركب جدلية الوجود والموجود لا تفكّ رموزها عن آخرها، ولا تنقضي عجائبها.

تأسيسا على ما سبق ذكره يمكن القول بأنّ الكلام في مجمله لا يخرج عن مستويين اثنين، أوّلها: المستوى العادي وهو ذو وظيفة إبلاغية محضة. وثانيهما: المستوى الفنّي الذي تسمو فيه درجة الإبلاغية، وتتوسّع دائرة الإبداع في الإعراب عن المعنى وبنائه بشكل مؤثّر جذّاب يأخذ بلبّ المتلقي، ويثير فضوله فيغمره الإعجاب بكيفية العدول عن الأصل في بناء المعنى، وما تحقّق من مواءمة بين المعنى والمبنى. وما تأتّى من « تمثيل وقياس لما

نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا. »[34] حيث يجتمع قرى الحسن من الجهتين. وفي معالجة القدامى لمراتب الكلام وطرائق التعبير عن المعنى ما يشي بتفضيلهم ما يكون سمته الوحي الخفي، واللحن الشجيّ، والرمز الحلو، والتلميح دون التصريح. فما كان من هذا القبيل كان أحلى وأدمث، لما فيه من إثارة للوجدان، وقدح لزناد العقل في طلب المعنى الثاوي خلف أستار العدول بصنفيه التركيبي والدّلالي على السواء. فالمعنى اللطيف يحتاج إلى فضل عناية، وحسن تأمّل وروية للوقوف على لبّه، وتنسّم نشره. فهو « كالجوهر في الصدف لا يبرز لك إلاّ بعد أن تشقّه عنه، وكالعزيز المحتجب لا يريك وجهه حتّى تستأذن عليه، ثمّ ما كلّ فكر يهتدي إلى وجه الكشف عمّا اشتمل عليه، ولا كلّ خاطر يؤذن في الوصول إليه. والمعاني التي تنال بعد طلبها أشهى إلى النّفس. »[35] وهي في الأغلب الأعمّ تلك التي يتضمّنها أسلوب العدول الذي تتسامى فيه ذروة الإبداع المفضية إلى لذّات الإمتاع.

الهوامش:

[1] – التركيب اللغوي للأدب، لطفي عبد البديع، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط:01، 1970،ص:54.

[2] – لسان العرب، ابن منظور ، دار صادر، بيروت، ط:01، (د ت)ج:316/10.

[3] – معجم التعريفات، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني تحقيق ودراسة:محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة،ص:184-185.

[4] – منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ط:03، ص:18-19.

[5] – كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، مطبعة محمود بك، الأستانة، ط:01، 1319هـ ،ص:51.

[6] – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط:05، 1981م. ج :263/01-265.

[7] – الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار،المكتبة العلمية،ج :217/01.

[8] – الخصائص، ابن جني:215/01.

[9] – المصدر نفسه:33/01.

[10] – إشكاليات القراءة وآليات التأويل، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط:07، 2005م.ص: 173.

[11] – الجملة في كتاب سيبويه، عبدالرحمن الحاج صالح، مجلة المبرّز، المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة، الجزائر، العدد:02، 1993م، ص:09.

[12] – البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط:1423،01هـ –2003م. ج:82/01.

[13] – دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1402هـ –1981م،ص:359.

[14] – ينظر المصدر السابق:316.

[15] – المقصود بها معاني النحو.

[16] – المصدر السابق:69.

[17] – بيان إعجاز القرآن، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق: محمد خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط:03، (د ت) ص:27.

[18] – علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة، ط: 01، 1419هـ – 1998م. ص:116.

[19] – البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط:01، 1994م، ص:329.

[20] – علم الأسلوب، صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة، ط:01، 1419هـ – 1998م،ص:134.

[21] – البلاغة التأويلية، تجليات التساند ومستويات الانفتاح على السياق،التفاسير والشروح نموذجا، محمد بازي، جامعة محمد الخامس، رسالة دكتوراه 2006م.ص:131.

[22] – المرجع السابق:135.

[23] – نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة، مصطفى حميدة، دار نوبار للطباعة، القاهرة، ط:01، 1997م.ص:63-64.

[24] – الحيوان، الجاحظ:39/03.

[25] – كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، مطبعة محمود بك، الأستانة، ط:01، 1319هـ، ص:120.

[26] – المصدر نفسه: 102.

[27] – عيار الشعر، أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، تحقيق:عبد العزيز بن ناصر المانع، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005م. ص:11.

[28] – ينظر: *La figure et l'argumentation, de la métaphysique à la rhétorique, Olivier Reboul, Bruxelles, 1986.p:183.*

[29] – البلاغة التأويلية ، تجليات التساند ومستويات الانفتاح على السياق، التفاسير والشروح نموذجا، محمد بازي، جامعة محمد الخامس، رسالة دكتوراه 2006م.ص:131،132.

[30] – الخصائص:442/02.

[31] – البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب:268.

[32] – الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدّي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط:05، 2006م،ص:84.

[33] – المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، أبو حامد الغزالي، مكتبة الجندي، القاهرة، 1968م. ص:11.

[34] – دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني،ص:389.

[35] – أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق:محمود شاكر، مكتبة الخانجي،القاهرة،1984م،ص:105.

قائمة المصادر والمراجع:

01- أسرار البلاغة، عبدالقاهر الجرجاني، تحقيق:محمود شاكر، مكتبة الخانجي،القاهرة،1984م.

02- الأسلوبية والأسلوب، عبد السلام المسدي، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط:05، 2006م.

03- إشكاليات القراءة وآليات التأويل، نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط:07، 2005م.

04- البلاغة والأسلوبية، محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر، مصر، ط:01، 1994م.

05- بيان إعجاز القرآن، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) تحقيق: محمد خلف الله أحمد و محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط:03، (د ت) .

06- البيان والتبيين، أبو عثمان الجاحظ، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان، ط:1423،01هـ -2003م.

07- التركيب اللغوي للأدب، لطفي عبد البديع، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط:01، 1970م.

08- الحيوان، أبو عثمان الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ،ط:02، 1384م-1965م.

09- الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار،المكتبة العلمية.(د ت)

10- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 1402هـ -1981م.

11- علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة، ط: 01، 1419هـ - 1998م.

12- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط:05، 1981م.

13- عيار الشعر، أبو الحسن محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي، تحقيق:عبد العزيز بن ناصر المانع، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005م.

14- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، مطبعة محمود بك، الأستانة، ط:01، 1319هـ

15- لسان العرب، ابن منظور الإفريقي المصري، دار صادر، بيروت، ط:01، (د ت)

16 – معجم التعريفات، علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني تحقيق ودراسة:محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة.

17- المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، أبو حامد الغزالي، مكتبة الجندي، القاهرة، 1968م.
18 - منهاج البلغاء وسراج الأدباء، حازم القرطاجني تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ط:.03
19- نظام الارتباط والربط في تركيب الجملة، مصطفى حميدة، دار نوبار للطباعة، القاهرة، ط:01، 1997م.

الرسائل الجامعية:

20 - البلاغة التأويلية، تجليات التساند ومستويات الانفتاح على السياق،التفاسير والشروح نموذجا، محمد بازي، جامعة محمد الخامس، رسالة دكتوراه 2006م.

المجلات:

21- الجملة في كتاب سيبويه، عبدالرحمن الحاج صالح، مجلة المبرّز، المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة، الجزائر، العدد:02، 1993م.

المراجع الأعجمية:

22- ينظر: *- La figure et l'argumentation, de la métaphysique à la rhétorique, Olivier Reboul, Bruxelles, 1986.*